



مركز شؤون المرأة - غزة
Women's Affairs Center - Gaza

كنت أشعر أنني أعيش عندما أرى الطالب فرحاً بعلاماته العالية، فأشعر أن نجاحه هو نجاحي الحقيقي لكن كل ما بنيته انهار مع الحرب...



"لم يرزقني الله بأطفال منذ زواجي، فتزوج زوجي من امرأة أخرى، يعيش معها ومع أولادهم في خيمة على بعد خطوات من خيمتي. أما أنا، فأعيش وحيدة."

نصف إنسانة في خيمة النزوح

تحمل سمر البالغة من العمر (38 عاماً) من مخيم جباليا شمال قطاع غزة. جسداً أنهكه المرض منذ لحظة ولادتها، حيث وُلدت بضمور في العضلات جعل حركة قدميها بطيئة. لكن مع تقدمها في العمر أصبحت عاجزة كلياً محكومة بكرسي متحرك يجرها كيفما يشاء. لتزيد الحرب الإسرائيلية مأساتها. أنهت سمر في عام 2009 درجة البكالوريوس في اللغة العربية خلال ثلاث سنوات ونصف، بتقدير جيد. كانت شغوفة بالكلمة وبالمعلومة، وتحلم بأن تصبح معلمة، فانضمت بعد التخرج إلى سنة التربية لتأهيلها للتدريس.

وبسبب صعوبة حركتها، لم تتمكن من التدريس في المدارس، فبدأت تعطي دروساً خصوصية من بيتها. فكانت تشعر بسعادة غامرة كلما رأت طلابها يحققون النجاح نتيجة جهدها وعملها المتواصل. تقول بابتسامة حزينة: "كنت أشعر أنني أعيش عندما أرى الطالب فرحاً بعلاماته العالية، فأشعر أن نجاحه هو نجاحي الحقيقي لكن كل ما بنيته انهار مع الحرب".

بدأت معاناة سمر في عام 2021، عندما تعرضت لكسر في ساقها ويدها، فقام الأطباء بتركيب البلاطين لها. ومنذ ذلك الحين، كانت قدرتها على الحركة والتنقل محدودة جداً، تتحرك ببطء شديد يشبه خطوات طفل صغير بدأ يمشي للتو، محاولة التكيف مع وضعها الجديد والتغلب على الألم المستمر.

استيقظت سمر في الثامن من أكتوبر 2023، عند الساعة السابعة صباحاً، على أصوات الصواريخ المتساقطة حول منزلها. حاولت معرفة مكان القصف من أحد، لكنها أثناء محاولتها سقطت مجدداً، فتعرضت لإصابات جديدة، إذ انكسرت يدها التي كانت قد رُكبت مسبقاً وتضررت أوردتها ساقها. أصبح من الضروري أن تخضع لعلاج طبيعى مستمر، لكن مع اندلاع الحرب وتحول كل شيء إلى فوضى، صار الحصول على العلاج شبه مستحيل، للتضاعف معاناتها وتزداد صعوبة حياتها اليومية.

زاد اندلاع الحرب على قطاع غزة من معاناة سمر، وبدأت تشعر أن كل ما بنته خلال السنوات الماضية قد انهار أمام عينيها. فقد قُصف بيتها في جباليا، واضطرت للنزوح إلى أحد المدارس في منطقة بير النعجة في غرب جباليا، قبل أن ينتهي بها المطاف في خيمة على شارع اللبابيدي في حي النصر غرب مدينة غزة. هناك، وسط العراء، لم تجد سوى الألم والرعب، بينما كانت الرطوبة تنخر عظامها، مضاعفة معاناتها اليومية، وجعلت حياتها أشبه بكابوس لا ينتهي.

تتابع سمر بحزن عميق: "لم يرزقني الله بأطفال منذ زواجي، فتزوج زوجي من امرأة أخرى، يعيش معها ومع أولادهم في خيمة على بعد خطوات من خيمتي. أما أنا، فأعيش وحيدة. وفي إحدى المرات احترقت خيمتي بينما كنت بداخلها دون أن أشعر، وفي مرات أخرى هاجمتني الكلاب ليلاً، فشعرت أنني في غابة وحدي، وليس بين الناس".

وتضيف بصوت خافت ومرتجف: "يقضي زوجي ثلاثة أيام بجواري في خيمتي، لكن باقي الأيام يقيم في خيمة زوجته الثانية بعيداً عني. أنا متعبة ومكسورة، محتاجة إلى سند، لكن حتى زوجي لم يعد لي وحدي، فأشعر أنني أعيش نصف إنسانة فقط".

تصف سمر حياتها في الخيمة بالمُهينة، إذ لا يوجد حمام مجهز، ولا مياه، ولا إضاءة، فتقول: "ربط زوجي كرسي الحمام بالسريير حتى لا أسقط، لكن الطريق إليه مظلم تماماً، فلا بطارية صغيرة ولا كشاف. كثيراً ما سقطت على وجهي أثناء محاولتي الوصول، وسال دمي، ولم يسمع بي أحد، كما لو كنت طفلة صغيرة، لكنني لست بطفلة، أنا إنسانة مكسورة، لا أحد يكثرث بي".

تعيش سمر وسط الفئران والقوارض والكلاب الضالة التي تجوب الشوارع بلا رادع، فتكتفي بالدعاء والتمني فقط بأن تحصل على خيمة مصنوعة من الحديد، تحميها من برد الشتاء القارس وحر الصيف الشديد، وتبعد عنها المطر والنار. تقول بمرارة: "لا أطمع ببيت، لكنني أريد خيمة جيدة، أو غرفة لها حيطان تحميني من الكلاب. أريد أن أعيش بسئراً، فأنا لم أعد قادرة على تحريك الكرسي اليدوي، وأصبحت أستجدي كرسيًا كهربائيًا يساعدني على التحرك".

الماضي عند سمر كان مليئاً بالأمل، لكنه تحول اليوم إلى ذكرى مؤلمة. تتذكر كيف كانت تجلس على "بسطة" صغيرة مع زوجها قبل اندلاع الحرب، فتتابع حديثها: "كان زوجي لا يعمل، فامتلكت بسطة صغيرة لبيع الحاجيات للأطفال الصغار لتغطية مصروفات البيت. كنت أشعر وقتها أن الحياة، رغم قسوتها، محتملة، لكن الحرب سرقت كل شيء، حتى هذا الرزق البسيط".

وتستطرد قائلة: "زمان كنت راضية أن لقمتمنا على قدرنا، أما اليوم، لقمتمنا ننتظرها من الناس، أو من تكية هنا أو هناك، أو طبق أرز يأتي من فاعل خير".

لم تتوقف معاناة سمر عند الخيمة أو المأكل والمشرب فقط، فهي تعاني أيضاً من نقص شديد في مواد التنظيف. لم يعد لديها حتى صابونة أو شامبو أو مسحوق لغسل ملابسها القليلة المكونة من ثوبين صلالة فقط، تغسل أحدهما صباحاً لتلبسه، وفي صباح اليوم التالي تغسل الآخر لتلبس الأول مرة أخرى. تقول وهي تخفض رأسها خجلاً وحرزاً: "وضعي أسوأ من السيء... نفسي أتحمم مثل الناس، نفسي أغسل ملابسني، لكن حتى الماء لم أجدّه".

رغم كل هذه المصاعب، لا يزال في قلب سمر مساحة صغيرة للأمل والدعاء. كل ما تطلبه هو شيء واحد: ألا تُجبر على النزوح مرة أخرى، إذ يمثل لها النزوح موتاً مضاعفاً، فهي لا تملك جسداً يمكّنها من الحركة بسهولة، ولا مالا يتيح لها طريقاً آمناً للهروب. تقول بحسرة: "أدعو دائماً أن يبقى في مكاننا، ولا يُخرجنا أحد منه، فلم يعد لدينا أموال للنزوح، ولا حتى ثمن رغيف الخبز، ولو أجبرونا على النزوح، فأنا أفضل الموت".

تجد سمر اليوم سندها الوحيد في زوجة أخيها الشهيد، التي تنام في خيمة قريبة منها، تأتيها يومياً لتطمئن عليها حتى تغفو، وتحضر لها وجبة ساخنة إذا وجدت، أو كوب ماء. هذا الحنان البسيط هو ما يبقياها على قيد الحياة. تقول: "هي الوحيدة التي أشعر أنها تشفق عليّ، ربما لأنها عرفت وجع فقدان الشهيد، بينما أنا أجرب وجع فقدان الحياة كلها".

اليوم، سمر ليست مجرد امرأة على كرسي متحرك، بل هي شهادة حية على أن الحرب لا تقتل فقط بالصواريخ، بل تقتل أيضاً بالخذلان والإهمال، بترك الإنسان بلا بيت، بلا دواء، وبلا حتى صابونة. تختصر حياتها بكلماتها الأخيرة المؤلمة: "أنا لست حية، أنا أنام وأستيقظ وأنتظر النهاية، لعلّ عذابي ينتهي، لعلني أجد مكاناً أرتاح فيه".